الفصل الخامس

التوحيد عند الصوفية
وعند الفلاسفة

مقدمة

تبين مما سبق أن الصوفية استخدموا الجوع لا للزهد، ولكن للحصول على المعرفة الإلهامية لأن هذه المعرفة هي الموصلة يقيناً بزعمهم إلى الله لذلك سمي من خاض بحارها العارف بالله.

والعارفون بالله عرفوه ليوحدوه. فغاية المعرفة إذن هي توحيده تعالى والفوز برضاه، وقد خالف الصوفية كل المناهج العلمية المتبعة في هذا الشأن، وانتهجوا نهجاً فلسفياً خاصاً. انبثق عنه نوع من التوحيد يراه الصوفية توحيد العارفين وتوحيد خاصة الخاصة.

و يراه أهل السُّنَّة انحراف خطير حُكِمَ على بعض سادات الصوفية من خلاله بالزندقة والكفر.

وعلى رأس هؤلاء أبو حمزة البغدادي والحسين بن منصور الحلاج والسهروردي وغيرهم, وبالرجوع لمحاولة استكشاف أصل هذا الانحراف،يعود البحث ليرى أن الحق تبارك وتعالى أمر في كثير من آيات كتابه العظيم المسلمين بالتفكر بآيات الله وآلائه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)**﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١] ،وقال رسول الله ﷺ :(**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله**) ، وفي رواية: (**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**). وفي رواية: (**تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله**) [١].

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٩٧٥ وقال الألباني حسن وخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة وذكر له عدة روايات في الصفحات من ٣٩٥ إلى ٣٩٧ وقال وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي والله أعلم. وذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ١٣ / ٣٨٣ وقال موقوف على أبي هريرة وابن عباس بسند جيد.

ولما كان العقل محدود بطبيعته ولا يمكنه استكشاف الغيب حيث قد عُلمَ للمسلمين أن الله احتفظ بالغيب لنفسه إلا بعض الغيبيات التي أطلع عليها بعض رسله لأمر إعجازي.

فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن : ٢٦ – ٢٧] .

وقال تعالى – موجهاً الآية إلى رسوله الكريم، وحكمها يشمل الأمة من بعده – : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ .

[الأنعام : ٥٠] .

وبمثل هذا وجه الله تبارك وتعالى رسوله كما في سورة الأعراف.

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾ .

[الأعراف : ١٨٨] .

وإن الله تبارك وتعالى غيب بالنسبة لنا فلم يكن لنا إلا الإيمان به وكما علمنا رسولنا محمد ﷺ .

لكن كبار الصوفية خالفوا هذا المنهج وحاولوا استكشاف الذات الإلهية، ثم إنهم قد علموا بمحاولاتهم محدودية العقل البشري عن إدراك الله عقلاً فلجئوا إلى مرحلة أخرى سموها طور ما وراء العقل ، أو الكشف أو المعرفة اللدنية أو النَّفْث في الرَّوع أو الإلهام لتدلهم على الله.. لا على آلاء الله ، فغاصوا في موضوع التفكر في الله المنهي عنه والتقوا بذلك مع الفلاسفة الذين هم بدورهم أدركوا عجز عقولهم فقالوا بالحدس أو الكشف أو الغنوص.

وقبل الذهاب للحديث عن التوحيد عند الصوفية أو الفلاسفة لابد للبحث أن يعطي تصوراً ولو في غاية الإيجاز عن التوحيد عند عامة المسلمين.

التوحيد عند عموم المسلمين

[١] لتوحيد لغة :

قال صاحب لسان العرب:

(أحد) في أسماء الله تعالى وهو (الفرد) الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر وهو أسمٌ بُنيَ لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول ما جاءني أحد والهمزة بدل من الواو ، وأصله وحد لأنه من الوحدة ، والأحد بمعنى الواحد[١] ، وقال في القاموس المحيط: وحده توحيداً جعله واحداً[٢] ، وكلمة التوحيد مصدر للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه وهي تعني الوحدة والانفراد والتفرد ، . . . .

والله الواحد الأحد، المنفرد بالذات والصفات في عدم المثل والنظير[٣] .

[١] أما في الاصطلاح:

فهو توحيد الله بموجب الأدلة الشرعية. وقد قال العلامة: علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: " اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل . . .

■ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف : ٥٩] .

■ وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾[الأعراف : ٦٥] .

■ وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[الأعراف : ٧٣] .

---

(١) لسان العرب ٣ / ٧٠ .

(٢) القاموس المحيط ١ / ٤١٤ .

(٣) الصحاح مادة وحد .

■ وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

■ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

فالتوحيد أول ما يُدخِلُ في الإسلام وآخر ما يُخرَجُ به من الدنيا [١] .

قال في الحسنة والسيئة: توحيد الإلهية يتضمن فعل المأمور وترك المحظور كما أن الأول(الربوبية) يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ولا معطي ولا مانع إلا الله... كما قال تعالى في النوعين: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ . وقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] .

وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب [٢] ، ثم التوحيد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، والأول متضمنٌ في الثاني دون العكس ، فمن لا يقدر أن يخلق يكون عاجزاً والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً [٣] .

ثم قسم شارح الطحاوية التوحيد الذي دعت إليه الرسل إلى نوعين :

توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وأنه ليس كمثله شيء في ذلك كله كما أخبر عن نفسه وكما أخبر الرسول ﷺ .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي تحقيق. أحمد محمد شاكر ص٢٦+٢٧ باختصار يسير.ط ١٤١٣هـ.

(٢) الحسنة والسيئة ١ / ١٢٨ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية/ ت أحمد محمد شاكر باختصار وانظر الصفحات ٣٥-٣٩ .

وكما أفصح القرآن في أول سورة الحديد ، طه ، السجدة ، وفي آخر الحشر وبسورة الإخلاص بكمالها .

والثاني: توحيد الطلب والقصد مثل ما تضمنته (سورة الكافرون) قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ .

وقال (الشارح) : وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد [١] .

وتوحيد الإثبات والمعرفة متضمن لتوحيد الأسماء والصفات الذي يقوم على الأسس التالية:

الأساس الأول: أن أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته توقيفية . فلا يثبت من الأسماء أو الصفات إلا ما أثبته تبارك وتعالى لنفسه أو ما أثبته رسول الله ﷺ .

الأساس الثاني: أنه ليس كمثله شيء . فكل الأسماء التي له تبارك وتعالى وكل الصفات التي له لا تتشابه مع أوصاف المخلوقين وإن التقت بالتسمية فصفاته صفات كمال وهي مغايرة لصفات المخلوقين .

فتسميته تعالى عالماً وتسمية العبد عالماً لا يوجب مماثلة علم الله لعلم العبد وكذلك الأسماء الأخرى [٢] .

الأساس الثالث: أن صفاته تبارك وتعالى صفات كمال . منزهة عن العجز والحدوث قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٤٤] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: « ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث » .

---

(١) نفس المصدر ص٤١ .

(٢) مظاهر الانحرافات العقدية عن الصوفية . ١ / ٢٠٥ .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ :

" لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي بل معناه يُعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول وأفصح الخلق في بيان العلم وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية وله أفعال حقيقية ، فكذلك له صفات حقيقية ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزه عنه حقيقة ، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه واستلزام الحدوث سابقة العدم ولافتقار المحدث إلى محدث ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى "(١) .

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية/ ٥٢٦ / ٥+٥٢٧ من النسخة القديمة (٣٧ مجلداً).

التوحيد عند الصوفية

عرف معجم مصطلحات الصوفية التوحيد بقوله:

التوحيد: معرفة معرفته الثابتة له في الأزل والأبد، وذلك بأن لا يحضر في شهوده غير الواحد جل جلاله، وأركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له، وترك التساوي بين النعوت، وإزالة العلة عن الربوبية... وتبرئته عن القياس.(١)

وهذا التعريف لا يخرج عن الفلسفة من خلال استخدام مصطلحات القدم ـ الحدث ـ العلة.

فإزالة العلة عن الربوبية تعني أنه ليس معلولاً لشيء فهو العلة الأولى لجميع الأشياء، وهو مصطلح فلسفي خالص.

ولم يهتم الصوفية من حيث الظاهر للمعاني التي طرحها أهل السُّنَّة للتوحيد، وخصوصاً توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات ولم يعيروه أي اهتمام حقيقي في تراثهم المكتوب. ولعل ذلك راجع إلى أخذهم الفلسفة من وجهين. فهم أولاً أخذوا المعرفة الفلسفية للصلة بالله، وهم ثانياً أخذوا المعاني التي طرحها أهل الكلام فيما يخص الصفات. وهي راجعة إلى الفلاسفة أيضاً كما سيأتي بيانه بالدليل في الصفحات القادمة ورغم ذلك. فمن خلال تصفح كتب القوم رأينا بعض التعريفات للتوحيد، وأهمها تعريفات الشيخ الملقب بشيخ الطائفة وهو الجنيد. **وبعض تعريفات أخرى لشيوخ غيره ما يلي:**

[١] تعريفات الجنيد للتوحيد:

(١) **التوحيد:** " هو إفراد القدم من الحدث "(٢).

---

(١) معجم المصطلحات الصوفية/ د. عبد المنعم الحفني/ ص/٥٢ دار المسيرة لبنان ١٩٨٠.

(٢) الرسالة القشيرية ص٢٢ تحقيق /هاني الحاج / وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الاستقامة =

(٢) **وقال:** "إن أول ما يحتاج إليه العبد معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه فيعرف صنعة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث"(١) .

(٣) **وسُئِل الجنيد عن التوحيد فقال:** "إفراد الموحِّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وقال: إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد تناهت في الحيرة (٢) .

(٤) **وقال:** " التوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ويكون الله تعالى كما لم يزل" (٣) .

(٥) **وقال:** " أن يكون العبد شبحاً بين يدي الله سبحانه تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته في لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته في حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته، لقيام الحق سبحانه له فيما أراد منه، وهو أن

وهو منقول بهامش النسخة التي أخذ كلام الجنيد منها، قال: هذا كلام فيه إجمال والمحق يحمله محملاً حسناً، وغير المحق يدخل فيه ما يشاء .أ.هـ وانظر كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ طبعة دار ابن حزم ٢٠٠٤ ص٥١ والذي يراه البحث أن هذا التعريف أثبت خالقاً بقوله (القدم) وأثبت مخلوقاً بقوله الحدث فهو على أية حال لا يتجاوز توحيد الربوبية ـ لكن الأمر اللافت إنه يستخدم في التعريف المصطلحات الفلسفية حرفياً، بل القدم والحدوث هي معانٍ عربية لألفاظ استخدمها فلاسفة المدرسة الأفلاطونية المحدثة.

وإن كان منهج شيخ الإسلام ابن تيمية هو الاعتذار عن بعض كلمات لشيوخ كبار أمثال الجنيد لما يرى من صدقهم في عبادتهم فإن هذا منهج سديد كما يقول الشيخ محمد العبدة , ولكن البحث أيضاً يرى ما يراه الشيخ العبدة في أن أكثر ما روي عن الجنيد شجع على اعتباره من مؤسسي التصوف ـ خصوصاً أن كل تراث الصوفية بعد الجنيد يشهد له بأنه شيخ الطائفة وسيدها، وانظر كتاب الشيخ محمد العبدة ـ الصوفية نشأتها وتطورها ص٣٥ دار الأرقم ـ برمنجهام ـ بريطانيا.

(١) الرسالة القشيرية ٢٥ .

(٢) نفس المصدر ٤٠٥ .

(٣) نفس المصدر ٤٠٥ .

يرجع آخر العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون"[١] ، وقال: " علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مفارق لعلمه" [٢] .

(٦) **وقال:** علم التوحيد طوي بساطه منذ عشرين سنة والناس يتكلموا في حواشيه [٣] .

وبسنده إلى المؤلف: سئل الجنيد عن التوحيد فقال: سمعت قائلاً يقول:

وغنى ليَّ من قلبي ... وغنيت كما غنى

وكنا حيثما كانوا ... وكانوا حيثما كنا

فقال السائل: أهَلَكَ القرآن والأخبار؟! قال: لا، ولكن الموحد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب وأيسره [٤] .

[٢] تعريفات لشيوخ غير الجنيد: للتوحيد:

(١) **قال الشبلي:** " التوحيد صفة الموحد حقيقة وحلية الموحد وسماً" [٥] وقال رجل للشبلي : أخبرنا عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد فقال: ويحك من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد ومن أشار إليه فهو ثنوي ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ومن تواجد فهو فاقد وكل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم محدث مصنوع مثلكم" [٦] .

(٢) **وقال رويم:** "التوحيد محو آثار البشرية وتجرد الألوهية" .

---

(١) نفس المصدر ٤٠٦ .

(٢) نفس المصدر ٤٠٧ .

(٣) نفس المصدر ٤٠٧ .

(٤) نفس المصدر ٤٠٨ .

(٥) المصدر السابق ٤٠٦ .

(٦) نفسه ٤٠٧ وحلية الأولياء ١٠ / ٣٧٤ .

(٣) وقال ابن عطاء: " حقيقية التوحيد نسيان التوحيد وهو أن يكون القائم به واحداً" (١) .

والجنيد يمثل كبار متصوفة الطبقة الثانية حسب ترتيب أبي عبد الرحمن السُّلمي في كتابه طبقات الصوفية, ويمثل أيضاً اتجاهاً معتدلاً في التصوف على ما ذكره أبو الوفا التفتازاني(٢) ، لأنه يقول: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسُّنَّة» ولكن الملاحظ أن الجنيد لم يُلزم نفسه بالقيد الذي طرحه على الصعيد العملي، ففي تعريفاته الأولى يبدو جلياً أثر الفلسفة في استخدام المصطلحات : (القِدَم، الحدث) .

وفي تعريف آخر أيضاً سلك مسلك الفلاسفة ولكن من وجه آخر وهو قوله :

(إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد تناهت في الشك) ، ثم استشهد لذلك بكلام لأبي بكر الصديق رضي الله عنه (سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته)(٣) ، (وكون الإنسان عاجز عن معرفة الذات الإلهية كما هي أمرٌ مُسلَّم فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ** ﴾ [الأنعام : ١٠٣]. وهي تشمل الحسي والمعنوي (القلبي) قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٠] ، لكن النتيجة التي رتبها الجنيد والقشيري مؤلف كتاب «الرسالة القشيرية» نتيجة غير صحيحة،حيث اعتبروا لازم ذلك هو الحيرة، وهذا نص القشيري. الذي يمثل نصاً فلسفياً كاملاً يقول:

---

(١) المرجع نفسه ٤٠٧ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي/ أبو الوفا التفتازاني ص/١١٣ دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩ .

(٣) وهذا الكلام لم يسنده الجنيد إلى أبي بكر وبينهما أكثر من ٢٥٠ سنة ولم يظهر للبحث أي أثر لمثل هذا الكلام في مراجعة سيرة أبي بكر رضي الله عنه سواء من خلال سيرة الرسول الكريم ﷺ أو من خلال الكتب التي كتبت عن حياة هذا الخليفة الراشد رضي الله عنه . وبالتالي فالقول بعدم صحة هذا القول هو المعتمد .

" ليس يريد الصديق رضي الله عنه أنه لا يعرف لأن عند المحققين العجز عجز عن الموجود دون المعدوم كالمقعد عاجز عن قعوده إذ ليس بكسب له ولا فعل والقعود موجود فيه، كذلك العارف عاجز عن معرفته والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية.

وعند هذه الطائفة المعرفة به سبحانه وتعالى في الانتهاء ضرورية فالمعرفة الكسبية في الابتداء[١]، وإن كانت معرفة على التحقيق فلم يعدها الصديق رضي الله عنه شيئاً بالإضافة إلى المعرفة الضرورية، كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه" [٢].

وهذا النوع من التوحيد لا يكون إلا بالفناء عن النفس عند الخاصة من الصوفية.

وقد عَرَّف الجنيد في الصفحات السابقة التصوف : (أن تكون مع الله بلا علاقة)، وهذه هي حالة الفناء، قال السراج في اللمع: وهذا لا يكون إلا بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له... بذهاب حسه وحركته لقيام الحق له فيما أراد منه... وبهذا الفناء في التوحيد يتحقق للصوفي الخروج من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية" [٣].

والفناء في التوحيد معرفة نظرية تحققت بها نفس الإنسان في عالم آخر قبل أن تتصل بالبدن في هذا العالم، وهذه الفكرة عند الجنيد وعند غيره من الصوفية المتأخرين كابن عطاء السكندري شبيهة بفكرة أفلاطون عن سبق وجود النفس الإنسانية في عالم المثل قبل هبوطها إلى البدن... ولذلك قال أفلاطون: العلم تذكر والجهل نسيان،[٤] ... وللبحث عودة للحديث عن الفناء بشكل أكثر تفصيلاً باعتباره تيار من التيارات الإلهية الصوفية الخارجة عن جادة الصواب.

---

(١) والمعنى أنه لما كانت المعرفة الكسبية ضرورة في الابتداء، وفي حالة العجز عن المعرفة الحقيقية، فالمعرفة الضرورية التي تشكل المعرفة الحقيقية هي معرفة غير كسبية إنها إلهام, نفث في الروع, تحديث عن الله، سم ذلك ما شئت لكنها ليست معرفة كسبية فتأتى بالعلم.

(٢) الرسالة القشيرية ص٤٠٦.

(٣) اللمع / للسراج ص٤٩.

(٤) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١١٤.

التوحيد عند الغزالي:

تكلم الغزالي عن التوحيد من خلال تقسميه إلى مراتب ولم يبحث في الحد فقال:

" للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب ، وإلى لُب اللُّب ، وإلى قشر وإلى قشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب .

فالرتبة الأولى من التوحيد هي: أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين .

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام .

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى كثرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار، والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصِّدِّيقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً وإذ لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول : مُوحِّد بمجرد اللسان ويَعْصِم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسِّنان ، والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن تُوفِّيَ عليه ولم تضعف بالمعاصي عقدته .ولهذا العقد حِيلٌ يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاماً والعارف به يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع ، ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد

يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته .والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً؛ إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقية إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يُعْقَدَ على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعه تلفيق الكلام الذي به حِيلَ المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد فالأول كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب" (١) .

ثم يمدح هذه الدرجة الرابعة إلى أن يقول: " فإن قلت كيف يُتصور أن لا يشاهد إلا واحد ،وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقه فكذلك كل ما في

(١) إحياء علوم الدين ـ الغزالي ـ ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦ .

الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد ، من الاعتبارات واحد وباعتبارات أُخر سواه كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا" (١) .

وظاهر كلام الغزالي في المثال المضروب على الإنسان يلزم منه شيء أخطر من الفناء، وهو وحدة الوجود. حيث يعتبر الكثرة من الواحد والإنسان عندما يرى الواحد واحداً فهو في حالة ذهول عن الكثرة التي هي منه ، وأقل ما يُقال بأن الغزالي كان غير موفق في مثاله هذا، ومرد ذلك إلى تقليد الفلاسفة أيضاً .

يقول د. عبد الرحمن بدوي في موسوعة الفلسفة:

« تأثر أفلاطون برمنيدس حين رأى أن التغير المطلق لا يمكن أن يكون إلا وهماً ، وأنه لابد من الوحدة إلى جانب هذه الكثرة لأن الكثرة المتحققة الوجود تفترض لها غاية واحدة هي الوحدة. وبهذا قال أفلاطون بما قال به برمنيدس من الوحدة » (٢) .

---

(١) المصدر السابق ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) هامش موسوعة الفلسفة ١ / ١٦٢ .

التوحيد عند الفلاسفة

لم تكن فكرة التوحيد عند الفلاسفة القدماء ، مثل سقراط و أفلاطون و أرسطو واضحة كما هي عند أهل الأديان السماوية إذ هي بالنسبة لهم مسألة عقلية أو إشراقية بحتة لا تتصل بكتاب منزل ولا بنبي مرسل [١] ، لكن جهودهم الخاصة أوصلتهم لأنواع من المعرفة الإلهية يتم بيان ما يخص معاني التوحيد منها من خلال محاولة التعرف إلى فكرة الإله عند أفلاطون ومن بعده. إذ لم تترك الكتابات أثراً واضحاً عن سقراط في هذا المجال.

حيث إن إحدى التُّهم الأساسية الموجهة إلى « سقراط » [٢] حينما حُكِمَ عليه بالموت كانت انتقاد الديانة الشعبية في أثينا والتي كانت تعتمد على تعدد الآلهة. وربما يكون لهذا الأمر أثره في كتمان بعض معاني الفلسفة الإلهية عند أفلاطون.

أفلاطون والتوحيد:

يقول أفلاطون: "إن المعرفة الخاصة بالإله معرفة لا تقال مطلقاً إلا لخاصة الخاصة، لما يحيط بها من أسرار ولا يجب التحدث عنها حديثاً عاماً» .

يعلق د. عبد الرحمن بدوي على هذا الكلام قائلاً: " لأن أي محاولة من أجل تطهير الدين الشعبي من التصورات الحسية والتهاويل الشعبية كان من شأنها أن تُستَغَل من جانب العامة لاتهام صاحب هذه الأقاويل بالإلحاد"[٣] .

وإذا كان هذا مبرر أفلاطون لجعل التوحيد سرياً فلا يَعقِل البحث ما هي

---

(١) ليس المقصود أن أمة اليونان لم يأت إليهم رسل فهذه مسألة في علم الله ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر-٢٤] .

(٢) سقراط : فيلسوف يوناني مشهور ولد في ٤٧٠ قبل الميلاد، أخذ الفلسفة عن أرخيلاوس وذيو جانس، وأهم تلامذته أفلاطون، اتهم سقراط بأنه لم يكن يؤمن بعقائد وديانات أثينا الشعبية فاقتيد إلى السجن وحُكِمَ عليه بالموت بتجرع السُّم عام ٣٩٩ ق.م.

(٣) موسوعة الفلسفة١ / ١٨٨ ، د. عبد الرحمن بدوي.

مبررات أبي حامد الغزالي عندما يقول (وأسرار هذا العلم يجب أن لا تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر) [١] .

ولكن رغم كل هذه السرية يستطيع الباحث أن يستخلص نظرة أفلاطون في الألوهية من خلال تتبع مقالاته، وقد جزم د. مصطفى النشار بإيمان أفلاطون بوجود إله.

واعتبر « مصطفى النشار » المسألة أمراً لا شك فيه. وجمع لتأكيد قوله عدة أدلة من مقولات أفلاطون ـ منها:

[١] أنَّ الإله هو الذي يجب أن نتخذه مقياساً للأشياء كلها ولا نتخذ أنفسنا مقياساً، وفي الإله يجب أن نضع ثقتنا، لا في قدرتنا العقلية الثاقبة [٢] .

[٢] أنَّ السلوك الوحيد المعقول للوجود البشري أن يعمل بموجب النواميس المقدسة ليجعلوا أرواحهم تتشبه بالروح الإلهية، تتشبه بذلك المبدأ الذي يهب الحياة لكل شيء.

ثم يبرهن أفلاطون أن هذا الإله هو العلة الأولى ومختصر قوله:

إن نشوء المعلولات عن العلل، وهو ما نشاهده في كل لحظة يبرهن على أن تلك العلل مشتملة على قوة في إمكانها أن توجد ما لم يكن موجوداً، فإذا ثبتت هذه القوة الإيجابية، وجب أن يكون هناك كائن متصف بهذه القوى الموجودة لأن ما هو ثابت للمعلولات من قوى يجب أن يثبت للعلل بهيئة أكثر كمالاً ، وليس هذا الكائن سوى الإله [٣] .

أرسطو والتوحيد : [٤]

إن أرسطو حسب شرح (ثامسطيوس) بنى مقدمات توصل منها إلى إثبات

---

(١) انظر : النص بطوله في الصفحات السابقة.

(٢) فكرة الإلوهية عند أفلاطون ص٢٤٤ نقلاً عن النظرية السياسية عند اليونان / آرنست باركر ٢ / ٣٣١ و٣٣٢ .

(٣) نفس المصدر ص٢٤٩ .

(٤) أرسطو طاليس : تلميذ أفلاطون ولد بمدينة أسطاغيرا ٣٨٤ ق.م توفي في مدينة خلقيس ٣٢٢ق.م.

محرك أول غير متحرك، تتحرك به سائر الأشياء هو أزلي أبدي باق قديم وهو عقل وحق، أول في الغاية.(١)

ويقول د. عبد الرحمن بدوي عن تصور أرسطو للإله:

"والله هو العقل على غاية الحقيقة وهو أيضاً المعقول على غاية الحقيقة فهو عقل ومعقول معاً، وتعقُّله إنما هو لذاته لأن شرف العلم بشرف المعلوم فلما كان الله أشرف الموجودات فينبغي أن يكون معلومه أشرف المعلومات أي أن يكون تعقُّله لذاته هو فعله الدائم وهذا العقل الدائم هو حياته... وحياته ليست في وقت بعد وقت بأحوالٍ مختلفة مثل حياتنا ولكن هو الحياة بعينها لأنه هو الفعل والفعل حياة، وكما أنه أفضل الأفعال كذلك هو أفضل الحياة... إن الله حياة أزلية دائمة في غاية الفضيلة".

ثم قال: "ولكن إن كان العالم أكثر من واحد فيجب أن تكون العلل الأولى أكثر من واحد، والأشياء التي صورتها واحدة وعددها كثرة ، يكون السبب في كثرتها المادة والعنصر والمحرك الأول لا تشوبه الهيولي،ولا هو ذو جسم، فيجب أن يكون المحرك الأول واحداً بالحد والعدد، والجسم المتحرك أيضاً إن كان متصل الحركة يجب أن يكون واحداً فالعالم واحد. وإذن فالعلة الأولى واحدة أي أن الله واحد... وهكذا ينتهي أرسطو إلى التوحيد"(٢).

ولكن هذا التوحيد هو توحيد وحدة الوجود كما هو واضح في الاستنتاج الذي توصل إليه.

فيلون والتوحيد :(٣)

وقبل الحديث عن الإلوهية عند فيلون لابد من الإشارة إلى أن فيلون كان

---

(١) موسوعة الفلسفة ١ / ١٠٤ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) مرت ترجمته.

يهودياً متديناً. لذلك فقد بدأ بالحقيقة الدينية أولاً وما استخدم الفلسفة إلا لتكون معينة على الحقيقة الدينية، فالأرجح أن يقال أن الدين هو الأصل وما الفلسفة إلا خادم للدين عند فيلون [١] . وهو وإن كان معجباً بفلسفة أفلاطون فإن إيمانه بشريعة موسى كان لنفسه أملك وبقلبه أوثق"[٢] ، لذلك حاول التقريب بين الألوهية عند أفلاطون ـ والتوراة فقال: " إن الكائن الذي قال به أفلاطون هو (يهوه) إله بني إسرائيل الذي بشر به موسى، وهو إله مفارق للعالم، فوق الجوهر، وفوق الفكر خارج عن الزمان، والمكان لا يقبل الكيف ولا يحده العقل...، وإلا لم يكن إلهاً ولا يمكن وصفه إلا بطريق السلب وإذا كان لابد من وصفه فكل ما يوصف به أنه موجود بلا كيف ولا صفة وكل ما جاء بالتوراة فيجب تأويله وحمله على غير ظاهره" [٣] .

والله لا يؤثر في العالم تأثيراً مباشراً إنما هو يؤثر بمجموعة من الوسطاء أو القوى الإلهية كما أن النفس لا تبلغ إلى الله إلا بالوسطاء أيضاً ومن الوسطاء (اللوغوس) أي الكلمة الإلهية أو النموذج الذي خلق الله العالم على صورته، ثم الحكمة الإلهية (صوفيا) التي يتحد بها الله لينتج عن اتحاده بها هذا العالم.[٤]

وغاية الإنسان إنما هي الوصول إلى الله والاتحاد به والفناء فيه، وهذا الاتحاد يتم في أعماق الروح بنوع من التجدد الداخلي والإشراق النفسي، وهي حالة لا يمكن تحديدها بالألفاظ إذ يضيق عنها نطاق النطق ، وإنما تعرف بالذوق والكشف.

أفلوطين والتوحيد : [٥]

ينظر أفلوطين إلى الإله على أنه الواحد الأوحد المطلق، اللامتناهي الذي لا

---

(١) موسوعة الفلسفة ١ / ١٩٢ .

(٢) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٢٠ محمد عبد الرحمن مرحبا.

(٣) المصدر السابق ١ / ٢٢٤ . (٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) أفلوطين فيلسوف يوناني المذهب مصري المولد فقد ولد في أسيوط عام ٢٠٥م وتوفي عام ٢٧٠م. يعتبر من أشهر مجددي الأفلاطونية (مذهب أفلاطون بعد الإضافات والتعديلات لذلك نسبت له المدرسة الأفلاطونية الحديثة) وتنظر في ذلك موسوعة الفلسفة ١ / ١٩٠ وما بعدها وكتاب من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٢٦ .

يوصف بأي وصف... فكلها دونه، وهو فوقها جميعاً ومصدرها جميعاً وعلتها جميعاً.

فكل صفة إيجابية تصفه بها... إنما هي تحديد له غير لائق به، وكل ما نستطيع أن نسميه به هو أنه واحد وأول. وما عدا ذلك فلا نعرفه إلا بطريق السلب فالسلب هو أقوم سبيل لوصف الله [١].

ويشرح أفلوطين توحيد الله من خلال نظريته في الفيض التي يقول فيها:

فالفيض يحدث كما يصدر النور عن الشمس دون أن يتغير جوهر الشمس، فالوجود بالقياس إلى الأول هو بمثابة شعاع الشمس من الشمس. ذلك بأن جميع الكائنات مادامت موجودة، تحدث حولها ومن جوهرها حقيقة تنزع إلى الخارج، وهذه الحقيقة هي صورة للأشياء التي انبثقت عنها... .

وهكذا فكل موجود فإنما يستفيد وجوده من الأول، ويقوم به ويعتمد عليه دون أن ينقص من الأول شيء، وإنما هو ينجذب إلى كماله فيتأثر به ويستجيب له[٢]، لأن النفس الإنسانية ترنو إلى الانخطاف والمشاهدة، والرؤى الغامضة الواضحة، والاستغراق في الواحد والاتحاد به والفناء فيه، هذا هو مطلبها الأسمى ومقصدها الأسنى.

إن فكرة الوحدة في الله هي الأساس في نظرية الله [٣] عند أفلوطين، ولهذا نجد أفلوطين.. يحاول أن يسلب عن الله كل الأفكار التي من شأنها أن توهم بأن هناك تعدداً أو تركيباً فيه ومن هنا جاء قوله إن الله هو الشيء الذي لا صفة له ولا يمكن أن يُنعت ولا يمكن أن يُدرك وهو الغني المكتفي بذاته البسيط[٤].

---

(١) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٣٠.

(٢) نفس المصدر ص٢٣٦.

(٣) هكذا النص، والأفضل أن تترجم العبارة في نظرية الألوهية.

(٤) موسوعة الفلسفة ١ / ١٩٨.

أوغسطين والتوحيد : [١]

إن محصلة فلسفة أوغسطين تتكون من الفلسفة السابقة له ـ فهو يرى أن الفلسفة هي الحكمة وغاية الحكمة السعادة ولا سبيل إلى إدراك حقيقة هذه السعادة إلا بمعرفة الإنسان نفسه (حسب مقولة سقراط) ذلك أن النفس إذا عرفت ذاتها عرفت لمن ينبغي أن تطيع وفوق من يجب أن تسيطر. إنها يجب أن تطيع الله وتسيطر على البدن [٢] .

والله عند أوغسطين هو الحق السرمدي الصمد وهو الخير المطلق وهو مبدأ كل وجود يقول: ويكفينا أن ندخل في ذواتنا لنجد أنفسنا ونجد فيها الله.

وله قول شبيه بوحدة الوجود إذ يقول: الله مبدأ كل معرفة إذ فيه توجد الصور أو الحقائق الأزلية الأبدية، ففية إذن وبه وحده يمكننا معرفة كل الأشياء إذ هي تجسد سندها وأصلها في الله.

إن الجود والمعرفة والحياة أمور مترابطة متساوية، وإدراكنا لهذه الحقائق لا يمكن أن يتم إلا بفضل حقيقة مطلقة عالية على النفس، هي الله فطريق النفس إذن هو الصعود من إدراكها لذاتها إلى إدراك ما فيها من حقائق أزلية أبدية لا يمكن أن يكون لها مصدر غير الحقيقة المطلقة التي هي الله [٣] .

وقبل أن يشير البحث إلى أوجه التشابه بل التطابق أحياناً بين تعريفات الصوفية وتعريفات الفلاسفة. لابد أن يقف عند مسألة الأسماء والصفات باعتبارها أحد أركان التوحيد.

---

(١) أوغسطين هو أحد أهم الفلاسفة المسيحيين ولد في « تاغشت » وتعرف اليوم بسوق الأحراس شرقي الجزائر عام ٣٥٤م وتوفي في « هبون » اسمها اليوم « بونه » غربي تونس عام ٤٣٠م وكان شمال أفريقيا آنذاك ولاية رومانية / عن موسوعة الفلسفة ١ / ٢٤٧ .

(٢) موسوعة الفلسفة ١ / ٢٥٠ .

(٣) موسوعة الفلسفة ١ / ٢٥٠ .